جماليات المكان في رواية" زنقة الطليان" لبومدين بلكبير

The aesthetics of place in the novel "The Italian Street" by Boumediene Belkabir

1 مختار حسيني*

مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط، (الجزائر)، hoceinim22@gmail.com

2 محمد نافع

جامعة تيارت، (الجزائر)، mohamed.nafaa@univ-tiaret.dz

تاريخ الارسال.2025/05/17....تاريخ القبول 2025/08/16 تاريخ النشر2025/09/16

ملخص:

حظيت رواية "زنقة الطليان"بشرف التواجد ضمن القائمة الطويلة لمسابقة الجائزة العالمية للرواية العربية، "البوكر" سنة 2022، وهي رواية مكانية بامتياز، وآية ذلك العنوان الذي وسمت به (زنقة الطليان) فالزنقة دال مكاني كان ماثلا في الرواية، والذي يشير إلى أحد الأحياء الشعبية العتيقة الموجودة في لا بلاص دارم بولاية عنابة الجزائرية، وعليه سنسعى في هذا المقال إلى رصد الأمكنة الماثلة في هذه الرواية من خلال الثنائية الضدية، الانغلاق والانفتاح، مع تبيان طبيعتها التي تتأرجح بين الألفة والمعاداة، وذلك عن طريق استنباطها من أفعال الشخصيات وتفاعلاتها فيما بينها، فهذه العوامل تسهم في تقريب الرؤية للقارئ لاستكناه طبيعة المكان ودلالته .

الكلمات المفتاحية: المكان الروائي، رواية "زنقة الطليان"، جماليات المكان.

Abstract:

" The Italians' Alley " novel was honoured to be included in the longlist of the International Prize for Arabic Fiction (Al-Boker) competition in 2022, and it is a spatial novel par excellence, as evidenced by its title " The Italians' Alley ", which refers to an old popular neighbourhood in ‘La place d’armes’ in the state of Annaba. Therefore, in this article, we will endeavour to monitor the places in this novel through the binary opposites of closure and openness, indicating their nature, which oscillates between familiarity and hostility, by extracting them from the actions of the characters and their interactions between them, these factors contribute to bringing the vision closer to the reader to explore the nature of the place and its significance.

Keywords: Fictional place, "The Italians' Alley " novel, aesthetics of place.

مقدمة:

تعد رواية زنقة الطليان، التي كان لها شرف التواجد ضمن القائمة الطويلة لمسابقة الجائزة العالمية للرواية العربية،

* مختار حسيني

"البوكر" سنة 2022، رواية مكانية بامتياز، وآية ذلك العنوان الذي وسمت به (زنقة الطليان) فالزنقة دال مكاني كان ماثلا في الرواية، والذي يشير إلى أحد الأحياء الشعبية العتيقة الموجودة في لا بلاص دارم بولاية عنابة الجزائرية، وتدور أحداث الرواية في هذه الزنقة العتيقة؛ إذ حاول الروائي بومدين بلكبير أن ينسج خيوط أحداث روايته في هذا الفضاء، بالاستعانة بمجموعة من الشخصيات التي كانت شديدة الالتصاق بالمكان وذلك طريق تعدد الأصوات، بحيث أقام عليها نوعا من التداعي الحر، فراحت تبوح بالكثير مما يعتمل في نفسها، وقد أبدع الروائي في ذلك من خلال تصويب عدسة الكاميرا على تلك الأحياء الشعبية، مصورا الكثير من الأمكنة والأحداث، وعليه سنسعى في هذا المقال إلى رصد الأمكنة الماثلة في هذه الرواية من خلال الثنائية الضدية، الانغلاق والانفتاح، مع تبيان طبيعتها التي تتأرجح بين الألفة والمعاداة، وذلك عن طريق استنباطها من أفعال الشخصيات وتفاعلاتها فيما بينها، فهذه العوامل تسهم في تقريب الرؤية للقارئ لاستكناه طبيعة المكان ودلالته .

1. الأمكنة المفتوحة: وهي الأماكن التي لا تحدها حدود معينة، ومن الأمكنة الماثلة في نص زنقة الطليان نذكر ما يلي :

أ_ الأحياء والشوارع: إن دراسة مثول الأحياء و الشوارع في الخطاب الروائي أمر بالغ في الأهمية، فهي تمدنا بمادة " غزيرة من الصور والمفاهيم التي تساعدنا على تحديد السمة أو السمات الأساسية التي تتصف بها تلك الفضاءات وبالتالي الامساك بما هو جوهري فيها أي مجموع القيم والدلالات المتصلة بها"[1]، وقد كان لهذا النوع من الأمكنة حضور مميز في هذا النص لأن جل الأحداث جرت وقائعها في زنقة الطليان في حي لا بلاص دارم بعنابة، وقد عكس هذا المكان المفتوح عدة دلالات، وانعكس على كينونة الشخصيات وسلوكياتها، وقد تأرجحت دلالات هذا الفضاء ما بين مكان للألفة والمعاداة، ومكان للأمل والألم، لليأس والبؤس وانكسارات الذاكرة، وقد ركز عليه الروائي تركيزا كبيرا؛ إذ أعطى له العديد من المساحات السردية سواء من خلال الوصف الهندسي التزييني، أو من خلال إدراج القرائن الدالة على علاقة الشخصيات بهذا المكان .

يصف السارد جغرافية المكان وهندسته:" بحي شعبي يقع في بلاص دارم، في العمق داخل شبكة أحياء، متآكلة مبانيها ومفتتة حجارتها وأزقة صغيرة أشبه بالمتاهة وممرات ضيقة وقذرة تشق داخل قلب المدينة، أقدم منطقة في عنابة، بركامها وفضلاتها المغبرة"[2]، إن السارد يصوب عدسة الكاميرا ويعطي صورة للقارئ عن هذا المكان الموصوف، بحيث إنه اتصف بالعتاقة والقدم، وحالة كبيرة من التأزم والبؤس، ثم تضيف دلال سعيدي _ إحدى الشخصيات الرئيسية_ في حوار مع الشخصية نجاة الرجلة حول بلاص دارم، تقول :" شهدت لا بلاص دارم حملة من الاعتقالات غير مسبوقة لأبناء الحي المتورطين ولبعض الدخلاء الأفارقة المتاجرين بالهروين والممنوعات وقد كان هناك قتلى بين الطرفين"[3]، ففي هذا الوصف تتجلى الطبيعة الاجتماعية لهذا الحي الشعبي الغير آمن؛ إذ هو مرتع للفساد والآفات الاجتماعية، وكثيرة هي المقاطع التي توحي بسلبية المكان.

ثم إن الروائي لم يكتف برصد الصورة السلبية عن هذا المكان، وإنما حاول أن يبرز الجانب المشرق منه في الكثير من المرات، لكونه رمز وتراث المدينة، وتاريخها وذاكرتها، وتتجلى الصورة الإيجابية في محاولة وقوف ساكنيه أمام السلطات ضد تهديم الزنقة وترحيل السكان بقرارات قانونية تعسفية، وما لقيه المعارضون من تهديدات ومضايقات، تقول السادرة دلال

متحدثة عن جلال:"وقف وقفة رجل مع ساكنة لا بلاص دارم لحماية زنقة الطليان من التهديم، لحفظ تراث المدينة العتيق من الضياع في أطماع ومغانم مسؤولين فاسدين"[4]، كما تظهر هذه الصورة أيضا في عتاقته من خلال استقطابه للسياح الأجانب الذين كانوا يقطنون فيه زمن الاستعمار، وهذا ما يظهر في المقطع السردي الآتي :"كان الزقاق مزدحما على غير المتوقع، وقع نظري على مجموعة من الأجانب، انتبهت أن أغلبهم شيوخ وعجائز، بعضهم يتنقلون من شارع فيليب إلى زنقة الطليان وهم مشدوهون في البيوت القديمة للحي."[5] وهنا تظهر القيمة التاريخية لهذا المكان، فبالرغم من إدراج صور البؤس، والإشارة على أنه وكر للآفات الاجتماعية والمناوشة والتصرفات غير المألوفة، تم ذكر بعض الصفات الإيجابية المحمودة التي توحي بنوع من الألفة في الكثير من المرات.

أما عن علاقته بدواخل الشخصيات فنجد للمكان أثرا بالغ الأهمية في ذلك، وقد اختلف ما بين مكان معاد ومكان أليف حتى مع الشخصية الواحدة نفسها، فالنسبة لدلال نجد علاقتها بالمكان مضطربة جدا، تصف مجيئها إلى زنقة الطليان هاربة من ماضيها وكوابيسها "وفي تلك الأثناء عادت بي ذاكرتي إلى تلك الأيام التي لا أرغب في تذكرها. لقد جئت إلى زنقة الطليان لأهرب من ذلك الماضي، من أطيافه ومن أشباحه، وها هو كل ذلك الماضي لحق بي إلى هنا"[6]، إن قدومها إلى هذه الزنقة كان بغية الهروب من الماضي التعيس، لكن لم يتحقق لها ذلك رغم حلولها هذا المكان الجديد، حيث لم يتغير شيء، وبقي مكانا لتداعي الذكريات والماضي الحزين وبالتالي أوحى بانعدام الألفة معه.

لكن سرعان ما يتحول بؤس مكان زنقة الطليان إلى أمر طبيعي بالنسبة لها، تقول:" على الرغم من أن إقامتي في زنقة الطليان كانت بائسة، لكنني تعودت على الأمر مع مضي الزمن وبت أرى جوانب أخرى لم أنتبه لها في البداية، جعلت الأمور أقل سوءا من ذي قبل وجعلتني أتأقلم مع الوضع بشكل سريع"[7]، فبعد عناء كبير تحول هذا المكان إلى ألفة بالنسبة لدلال إلى أن أصبح مكانا للأمل والحلم لديها، تقول:" أما أنا فكنت أطمح بضراوة أن استمر. حتى أعيش ذلك اليوم ، أعيش واقعا مختلفا، ها هنا، في زنقة الطليان كما كان يأمل جلال"[8]، لكن لم يتحقق لها ذلك بحيث أصيبت بالجنون وهذا ما ظهر في نهايات السرد، حينما كانت نهايتها نهاية مأساوية، وارتبطت هذه المأساة بالمكان، إذ أصبح معاديا ومشحونا بدلالات الحزن والخوف والرهبة والشقاء، عندما وجدت نفسها وحيدة في الأزقة " كنت وجها لوجه مع الفراغ، عزلاء في عراء الصمت ، لا أريد أن أستمع للصمت الآن "[9]، وتقول أيضا :" ثمة أشياء لم يسبق لي رؤيتها من ساكنة المدينة، مطلقا. العابرون يعدّون على الأصابع، يمرون هرولة فيما يخفون وجوههم خلف كمامات. كان الجميع يتفادانني..."[10] ، ثم يزداد المشهد المرتبط بالمكان مأساوية وقتامة حينما تصف رهبته جراء نزول وباء كورونا، تقول:" هو أمر غريب وغير معتاد ومحزن فعلا أن ترى المكان مقفرا بهذا الشكل كان ما رأيته، أمرا مفزعا يصعب تصديقه"[11]، لقد خلف خواء المكان حالة نفسية رهيبة لدلال فبعدما كان مزدحما بالمارة والتجار أصبحت الشوارع تغوص في فراغ رهيب، وهو ما أحدث الصدمة لهذه الشخصية .

أما بالنسبة لجلال الجورناليست فتظهر علاقته بزنقة الطليان كعلاقة حب وألفة، فهو المدافع والمنافح عنها، الذاب عن حياضها، هو الذي كلفته شجاعته للتضحية بنفسه والوقوف في وجه المسؤولين المتغطرسين قصد منعهم تهديم الزنقة، حيث تجرع مرارة السجن ثم الموت حيال ذلك، ثم إن جلال كان طموحا وحالما بتغيير الواقع في زنقة الطليان، من واقع مأزوم وحزين، إلى واقع ينبض بالبهجة والفن والثقافة، يقول: " دوما ماكنت في قرارة نفسي أتساءل عن كيفية تحول

أطلال البنايات المهجورة المنتشرة في المدينة العتيقة المنتشرة في المدينة العتيقة إلى قصور تمتلئ بالحياة، مساحات للفن والثقافة، وكيف يحدث تمكين الفنانين من استخدام تلك المساحات في لا بلاص دارم للتعبير عن آرائهم وعرض مواهبهم وخلق فرص للناس هنا لحضور تلك العروض والاستمتاع بالأنشطة الثقافية والفنية وجعلها في متناولهم جميعا"[12]، ويقول في موضع آخر:" أتمنى أن أرى تلك الأمكنة المظلمة والمليئة بالقمامة والتي يستغل بعضها تجار المخدرات، تتحول إلى فضاءات لعروض الأفلام ومسرح الشارع وحفلات الموسيقى ومعرض للحرف اليدوية، سيرحب ساكنة المدينة العتيقة بالمشروع وسيحتضنونه وسيحظى باهتمام بالغ من قبلهم "[13]، لكن هذا الأمر استحال عليه في ظل تغول أصحاب النفوذ، فأفكار جلال في الحفاظ على تراث المدينة ورمزية مكانها، وفكره الإصلاحي كلفه الكثير، ثم إن كل هذا يعكس أزمة المثقف، والمصلح والفنان ...إلخ.

أما فيما يخص علاقة المكان بالشخصية نجاة أو ناجي الرجلة كما يطلق عليها، كانت علاقة شقاء وبؤس، فنجاة امرأة حاولت أن تسترجل وتتمرد على أنوثتها، وحاولت أن تواجه الواقع المحتم عليها، بأن تشتغل في طاولة لبيع السجائر والشاي وبعض المأكولات الخفيفة، وأن تسكن خرابة مليئة بالقطط، ترسم سوداوية المشهد الذي هي عليه بقولها: "حينما أخرج إلى طاولتي، لا أحد من سكان المدينة العتيقة المحيطين بي ، يعرف أنني مرمية في الشارع، مشردة، إنه أمر مؤسف تمضية كل ذلك الوقت من الليل بلا سقف، أبيت الليل كله بمفردي أتسكع في الشوارع والأزقة الضيقة الخالية من المارة وأرتقي الدرجات المهجورة والمظلمة، مسرعة ومهرولة، أشياء كثيرة مرمية ومبعثرة في الشارع، علب البيرة المعدنية وقارورات زجاجية خضراء وعلب الكرتون المكدسة..."[14] ، فالشارع أو الحي كان مصيرها المحتم عليها، لأنه مأواها الوحيد فلا مهرب منه إلا إليه، وهنا يصبح الشارع فضاء للتشرد والخطر، وبالتالي كان مكانا معاديا بالنسبة لهذه الشخصية.

ومن هنا شكلت الأحياء والشوارع الحيز الأكبر من الحضور في الرواية، وقد ألبسها الروائي العديد من الدلالات التي يمكن للقارئ من خلالها أن يستشف ما بدواخل الشخصيات، ثم إنها مطية للروائي لبث آرائه، أي إنها معبرة عن دلالات ومقاصد المؤلف حول قضايا معينة.

ب_ الوطن والغربة: إن الوطن محل الانسان ومأواه، هو المكان المرتبط بتاريخه وذاكرته وهويته ووجوده، وفي مقابل ذلك نجد الغربة وهو البلد الآخر الذي قد يكون ملجأ للإنسان في فترة من الفترات قسرا أو اختيارا، وقد كانت هذه الثنائية ماثلة في نص زنقة الطليان، مشكلة العديد من الدلالات، وهذا ما تمثل في حديث نونو لارتيست إلى جلال، يقول نونو ساردا ماضيه وكيف أنه قد ضاق ذرعا بالمكان في فرنسا نظرا لصعوبة العيش،:"سافرت رفقة والدي في صغري إلى باريس، وهناك تعرضنا للعديد من المتاعب بسبب غياب فرص العمل"[15]، ثم حاول أن يعرض مساره الفني بفرنسا على دلال و جلال الجورناليست، متحدثا عن العنصرية التي تعرض لها في ذلك البلد، يقول:" كنا نأخذ آلاتنا الموسيقية لهذه البارات الرخيصة والصاخبة ونعزف حتى يلقوا بنا خارجا أو حتى تبدأ المعركة. تعرضنا للسخرية والازدراء من قبل الكثيرين"[16]، وبالرغم مما تعرض له من نكسات واصل عمله واكتسب شهرة كبيرة في فرنسا، لكنه ظل مربوطا ببلده الأم، بعدما شعر باغتراب نفسي رهيب عندما أيقن أن ذلك المكان ليس مكانه، وهو ما أجج مشاعره بالشوق والحنين إلى الجزائر، يقول:" رغم أنني أحطت بالشهرة والثناء، إلا أنني سرعان ما وجدت نفسي أسيرا للحزن، بعد كل المشاكل التي حدثت لي ففكرت في العودة إلى عنابة مرة أخرى. كما أنني كنت أفكر في الجزائر كثيرا، كان يغلبني الحنين إليها وأنا ببلاد

الغربية، وكانت أمنيتي دوما هي متى أرجع إلى أرض الوطن"[17] ، فنونو يكشف سلبية المكان الغربي ويظهر عدم ألفته معه، فبالرغم من صعوبة العيش وقساوة الحياة في وطنه الجزائر، والتي اضطرته إلى الهجرة بحثا عن العمل، وبالرغم من أن عمله الفني بفرنسا أكسبه الشهرة وكان يدرّ عليه بالخيرات، إلا أن قلبه ظل معلقا ومشدودا بوطنه.

ج. المقبرة: على الرغم من أن المقبرة مكان يوحي بالوحشية وعدم الألفة بالنسبة للإنسان، وذلك راجع لطبيعة النفس البشرية التي تتمسك بالبقاء وتنفر بكل ما يذكر بالفناء، يحضر فضاء المقبرة في أحد المقاطع السردية كفضاء فيه نوع من الألفة والاطمئنان لدى الشخصية دلال، تقول متحدثة أثناء زيارتها لقبر نجاة الرجلة: "وحدها نجاة من تعرف الاطمئنان، بعدما اختارت جانبا مشمسا من مقبرة زغوان، سأجد عندها بعض السلوى"[18]، إن دلال تحول هذا المكان إلى فضاء للاطمئنان والسلوى، إذ راحت تستأنس بنجاة، و أرادت أن تبرز كيف أن موتها ورقودها في هذا الجانب المشمس من المقبرة أفضل من حياة التشرد التي كانت تعيشها، بدون مأوى أو بيت، فلجأت إلى المقبرة والأموات بعدما فقدت الأمل في الأحياء، وهنا تبرز ألفة المكان في نفسية دلال.

كما ذكر الروائي المقبرة ذكرا عابرا، ويتجلى ذلك في موت جلال ونقله إلى مقبرة زغوان: "كان الرحيل مفاجئا وصادما لذاك الذي شيع أمس إلى مثواه الأخير وحضرت جنازته مع مئات من الناس ودفناه في مقبرة زغوان"، فهذا المقطع يوحي بمكانة جلال وسط تلك الطبقة الهشة من المجتمع فقد حظي بجنازة مهيبة حضرها عدد كبير من المشيعين، فجلال كان صوت المهمشين والمقهورين، وبالتالي لم يتخلفوا عن مرافقته إلى مرقده الأخير.

د_ الجبل والبحر: وقد أدى وظيفة تزيينية دراء للملل الذي قد يصيب القارئ، فالسارد أراد أن يخرج من فضاء المدينة، ليصف لنا طريق الجبل والبحر، أين توجد الزاوية التي كانت تذهب إليها دلال، تقول:" توقفت بنا سيارة الأجرة في عين عشير، عند طريق ترابية، ثم أكملنا صعودا إلى مرتفعات من الصخور وسط الخضرة، كلما كنا نتقدم أكثر، كانت تتناهى إلى أسماعنا أصوات الطبول والأهازيج الصوفية والزغاريد بشكل واضح ...واصلنا صعودنا إلى أن ظهر على يميننا سطح البحر، تعانقنا زرقته السماوية وتلفحنا نسماته الشتوية"[19]، إذن تم تقديم المكان بنوع من الشعرية وإعطائه هالة من القداسة الروحية، ثم تضيف دلال واصفة إعجابها به: " لما زرت المكان بدوت مبهورة بالجبل والبحر والمغارة والطقوس "[20]، فمن خلال هذه المقاطع تظهر ألفة المكان مع شخصية دلال.

2. الأماكن المغلقة: وهي تلك الأماكن المحدود بحدود معينة، وقد تم توظيف الكثير منها في هذه الرواية ، نذكر ما يلي:

أ_ المقهى: إن لهذا الفضاء حضورا مميزا في الروايات " وهذا الأمر لا يقتصر على الروايات الواقعية، ولكن أيضا في الروايات الجديدة...التي يتحول فيها المقهى إلى مسرح منفرد للأحداث بحيث يبدو وكأن هذه القصة لا يمكن أن تتم إلا بوجود مقهى "[21]، وقد جاء ذكر المقهى كفضاء مغلق في العديد من الملفوظات السردية في هذا النص، فلم يفوت السارد بأن يعطي مساحة سردية معتبرة عن طريق الوصف الدقيق، من خلال تبطيئ السرد بواسطة تقنيتي المشهد والوقفة الوصفية، وذلك في حدود العشر صفحات، بأن يرصد فيها هندسة هذا المكان وتأثيثه، ويصف ما يحدث فيه من مشاهدات لمباريات كرة القدم ولعب للدومينو، وما يدور فيه من أحاديث، بل ويركز على أدق التفاصيل في ذلك كتقديم صاحب المقهى والنادل وبعض الرواد دائمي الحضور.

فمن الملفوظات التي تصف معمارية هذا المكان، قول السارد:" الحركة في الممرات التي لم تلتهمها الطاولات لا تكاد تتوقف، سحابة دخان تملأ المقهى، في أعلى الجدار الذي على يميني نافذتان مسيجتان بشباك حديدي وفوقهما مكيفان، على جانبهما ثلاث مراوح هوائية، أسفل النافذة الأولى خمسة صفوف من صناديق المشروبات وضعت فوق بعضها وعلى يساري مرآتان كبيرتان وبينهما كادرات صور فرق رياضية، أعتقد أن إحداهما للفريق الوطني الجزائري والأخرى للفريق المحلي اتحاد عنابة. أعلامها أضواء النيون الأبيض الساطع، كما هي موزعة على باقي جدران المقهى وعلى السقف كذلك. على الجانب الأيمن لباب المقهى ثلاجة مليئة بأنواع المشروبات الغازية والعصائر وقارورات المياه المعدنية الصغيرة، وفوقها قفص داخله طائر الحسون"[22]، إذن بمسحة بانورامية مسح السارد المكان مدرجا كل كبيرة وصغيرة في تأثيث ذلك المقهى ليعطي القارئ صورة مفصلة ويشركه المشاهدة ويشعره بواقعية المكان.

ثم يبرز السارد في مقاطع أخرى كيف أن هذا المكان هو فضاء للبوح بالمعاناة ونقد السلطة وكيف أنه مكان للتخطيط والتمرد خاصة فيما يتعلق بإنقاذ زنقة الطليان حيث دار فيه حديث طويل المدى لمعالجة قضية الهدم ومن بين ما جاء في ذلك الحديث الدال على التمرد والامتعاض من تغطرس المسؤولين ما يلي :"جاء النادل يستفسر عما أطلبه، كنت أحدق في الوجوه بينما كان النقاش محتدما بين المجموعة. قال فيصل بونخلة ممتعضا: لم يعد في إمكان أحدنا، اليوم، التفكير في موضوع آخر، خارج هاجس تهديم زنقة الطليان، الذي سيطر على أفكارنا جميعا... "[23]، ثم يضيف جلال على كلام فيصل: "...أتنمى أن تدفعنا تلك المخاوف والهواجس، إلى التشبث أكثر بالحياة من خلال المقاومة ورفض كل ما يدبر لنا بليل، ونقل الرعب إلى معسكرهم، لقض مضجع المير وكل من والاه بدلا من الاستسلام والموت"[24]

ثم إن ما يعضد أن المقهى بالنسبة لجلال هو مكان تمرد ومقاومة قول نونو لارتيست حينما يتحدث عن جلال:" هو من شجع بعض أبناء لا بلاص دارم على المقاومة، فقد أوقد الشرارة الأولى لإحداث الشغب والعنف، بأحاديثه الكثيرة التي كانت تدور أغلبها في المقاهي"[25]، ويقول في نفس الصدد عن جلال وأصحابه :" أتذكر كيف كنت أسمعهم في المقهى ينتقدون انتقادا ساخرا السيد رئيس البلدية ويتظاهرون بأنهم يفقهون في كل شيء"[26]، من خلال السياقات السردية التي أوردناها والبعض الآخر، التي لم نذكرها نظرا لكبر سعتها، تظهر دلالة هذا المكان المغلق على أنه مكان للتمرد والمقاومة والإصلاح والوعي بالنسبة لمجموعة، ومكان للهو واللعب والترويح عن النفس لمجموعة ثانية، ومكان للهروب من الواقع والانكفاء على النفس لفئة ثالثة، ومكان للاسترزاق لفئة رابعة؛ إذ اتخذ عدة أبعاد غير أن بُعد التمرد والمقاومة كان طاغيا على هذا النص.

ب_ البيت: هو من الأماكن التي "تجسد قيم الألفة بامتياز، ولأن البيت مأوى الإنسان، فإنه يمثل وجوده الحميم، يحفظ ذكرياته ويتضمن تفاصيل حياته الأشد خصوصية وحميمية"[27]، ومن الأمكنة التي تدل على معنى البيت والمأوى في رواية زنقة الطليان هو شقة دلال سعيدي التي ركز عليها الروائي تركيزا كبيرا، وجعلها مرتبطة ارتباطا وثيقا بتلك الشخصية، غير أن هذا المكان المغلق الذي يتسم بالضيق جاء مفرغا من قيم الألفة والحميمية، فلم يكن مصدر راحة بالنسبة لدلال، تقول واصفة شقتها:" كانت الشقة التي أقيم بها في وسط المدينة العتيقة لا بلاص دارم، على بعد أمتار قليلة من شارع الثورة، ضيقة بعض الشيء، تقع بالطابق الأول في بناية عتيقة ومتهالكة، قاب قوسين أو أدنى من انهيار بعض أجزائها"[28]، فالروائي عن طريق الشخصية نفسها أعطى للقارئ بطاقة تعريفية عن هذا المكان وموقعه وحالته، ثم إن تلك

الأوصاف التي وصفتها دلال بكون الشقة تتسم بالضيق وتقع في بناية متهالكة يعطي انطباعا لدى القارئ حول الحالة الاجتماعية لكل من الشخصية وسكان ذلك الحي، إذ توحي بأن ساكنته هم من طبقة الهامش في المجتمع .

كما يظهر أن هذا المكان كان مصدر فجيعة بالنسبة لدلال، وذلك حينما تصف في هذا الاسترجاع عدم ألفتها معه، تقول: "الأيام الأولى التي أقمت فيها بهذه البناية كانت جحيما لا يطاق، فقد كنت متذمرة باستمرار من العيش في شقة بهذا القدر من البؤس والإهمال، كما كنت أشعر بشكل دائم تقريبا باختناق واغتمام كبيرين كأنني حشرت في مكان منبوذ وملعون خصوصا وأن بعض الجدران كانت رطبة جدا وتنبعث منها رائحة عفنة ونتنة إلى حدّ أفقدني القدرة على التحمل"[29]، إذن فهذه الشقة تنعدم فيها دلالات الألفة والراحة والاستقرار، وهو ما شكل مصدر تأزم نفسي لهذه الشخصية، غير أن دلال و على مضض اعتادت المكان رغم كل الظروف التي عاشتها، إذ تقول في استرجاع آخر:" في بداية الأمر لم أشعر بأدنى انسجام أو تقارب عاطفي مع المكان ككل أو مع الشقة التي استأجرتها، لكنني مع مرور الوقت بدأت اعتاد على الأجواء تدريجيا، وفي فترات شعرت بأنها تناسب بشكل كبير حالتي الاجتماعية وظروفي المادية"[30]، إذن فاعتياد دلال المعاناة وكذا حالتها الاجتماعية ودخلها الشهري المحدود الذي حتم عليها العيش في هذا المكان قسرا لا اختيارا، وعليه فقد أظهرت من خلال المقطع السردي نوعا من الرضى وبعضا من قيم الألفة مع المكان، وقد تجسدت في كون الشقة مأوى يحميها من تشرد الشارع ويقيها حر الصيف وقرّ الشتاء لا غير، لتبقى الصورة العامة حول علاقة المكان بتلك الشخصية هي علاقة معاداة.

ج_ الزاوية: إن هذا المكان المقدس كثير التوظيف في الرواية الجزائرية، وذلك لعدة أغراض كتبيان دور الزوايا في طلب العلم ونهله، ودورها في الحفاظ على الهوية الوطنية والقيم الاجتماعية، وكذا إبراز قيمتها في خدمة الثورة التحريرية...وهلم جرا، لكن في هذا النص يخرج الكاتب عن المألوف، وإن كان يغالي في بعض الأحيان، من خلال تسليطه الضوء على دُور الفساد والرذيلة التي تتوارى خلف ما يسمى بالزاوية، والتي يتخذ أصحابها من الألبسة البيضاء والعمائم واللحى قناعا لخدمة أغراض معينة.

في نص زنقة الطليان تنزاح الزاوية من كونها فضاء مقدسا إلى فضاء مدنس، فمنذ الوهلة الأولى تظهر قداسة المكان للقارئ من خلال افتراضه المسبق أولا، ثم من خلال وصف الساردة، حينما تقول:" أغلب الحضور رجال يرتادون ألبسة بيضاء تقليدية...خلف الكراسي حيث تجلس المرأة العجوز، خمس خزانات بيضاء اللون مصنوعة من الألمنيوم، تحفظ فيها الأحذية، وعلى الجنب ثلاثة مكاتب وضعت فوقها صينيات عليها فناجين مقلوبة وصحون مملوءة بالقريوش والشامية والحلويات التقليدية والتمر وعلب العصير الكرتونية"[31]، إن هذه العادات الحميدة المذكورة في هذا الملفوظ السردي، كإطعام الطعام وإكرام الضيف هي دأب متأصل في الزوايا، والتي تشي بقدسية المكان، ثم إن ما يعضد ذلك وصف الساردة لشيخ الزاوية الذي يوحي كلامه ومظهره ولباسه بالوقار والورع والقداسة، تقول:" بادر شيخ مسن إلى أخذ الميكرفون رحب بضيوف الزاوية في كلمة مقتضبة. الرجل فصيح اللسان، وبحة صوته زادته تأثيرا في نفوس الحاضرين، بدأ في تلاوة المدائح: صلّ اللّهم على سيدنا مُحَمَّد النبي الكريم وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما...، ثم تلا بعدها الفاتحة والأدعية والأهازيج الصوفية..."[32] ، غير أن هذه القدسية تنقلب رأسا على عقب ويكسر أفق التلقي، ويتحول هذا المكان إلى مكان مدنس بامتياز، من حيث إنه فضاء للدجل والشعوذة، ويظهر هذا من خلال حوار الشيخ ودلال:" ما

أن جلست، حتى سألني عن اسم الرجل، أخبرته: جلال...وأثناء ذلك نظر إلى العين في العين، وقال: هل تحتفظين بصورة له؟"[33]، ويظهر كذلك على أنه وكر للآفات الاجتماعية، تقول الساردة،:"بينما كنت أرقب المرأة بطرف عيني، تناهت إلى سمعي كلمات تفوه بها شاب يرتدي قميصا أخضر اللون مخاطبا رفيقه: هيا أسرع جهز لفافة الحشيش.."[34] ، ثم إنه مرتع للفساد والاختلاط والطقوس التي لا تمت بأية صلة للزاوية، تقول:" وبينما نحن جلوس دخلت علينا فتاة شقراء بشفتين منتفختين ترتدي بلوزة قصيرة بنية اللون... اختارت مكانا قريبا من الشيوخ، أين وضعت نارجيلة بين صديقاتها. لما جلست ارتفع ثوبها إلى فخذيها.. لمحت الشيخ معيوف عزازنية ينقل نظره من موضع إلى آخر على امتداد الجهة التي جلست فيها الفتاة"[35]، وفي موضع آخر ترصد ذلك الفساد الذي يقع في هذا المكان وبحدّة كبيرة، وكان ذلك في خضم وصف الطقوس التي كانت تقام هناك، تقول:" ورجل يمسك خصر إحداهن من الخلف وهي تتهول وعلى رقبتها قطعة قماش زرقاء اللون. وبعد هنيهات أضيفت لها قطعة خضراء طلبها الرجل الماسك بخصرها.."[36]

إذن، انزاح هذا المكان من وظيفته الأصلية التي تتمثل في حلقات الذكر والعبادة، والتسامي الروحي وحفظ القرآن، وتلقين العلوم الشرعية، إلى مكان مدنس يحتوي على كل أشكال الرذيلة والفساد، وبالتالي أصبح مكانا مدنسا يوحي بعدم الألفة.

د_ السجن: يعد من الأفضية التي تتسم بالانغلاق والمعاداة، وارتبط في هذا النص بشخصية جلال، وقد كان مصدر فجيعة وفناء له، فبمأساوية شديدة راح يصف ليلته الأولى في السجن : " في الليلة الأولى التي أحضرت فيها إلى سجن بوزعرورة، بعد أن أودعوني داخل الزنزانة، انحنيت بعض الشيء وتنفست بعمق واعترتني علامات الذهول والقشعريرة، لأن السجن كان مكتظا، حيث يسير السجناء كتفا إلى كتف، والإجراءات الأمنية مشدّدة جدا والبرد الرّطب يخترق العظام"[37]

ويواصل رواية معاناته النفسية داخل الزنزانة،:"ها أنذا في أسوأ وضع يمكن أن يكون في إنسان، لأول مرة أدخل فيها السجن..لم أعرف ما أفعله حيال وضعي الجديد، بما أنني مجرّد سجين مبتدئ كنت هائما في الفراغ، لا أستطيع التفكير، فقدت القدرة على القيام بذلك تماما، شعرت بأن الحلول انعدمت. كنت في هوة مظلمة، لم أستطع التحرك. صمت رهيب وضغط ساحق وظلام حالك"[38]، كما يسرد معاملات السجن وكيف أنه يتعرض للضرب يقول،:"في اليوم الثاني، بدأت أتعرض إلى السب والشتم داخل السجن في اليوم الرابع فقد تعرضت للضرب"[39].

لقد ساءت حالة جلال النفسية بعد دخوله السجن وازدادت حالته الصحية سوءا بعد إضرابه عن الطعام مما أدى إلى وفاته بعد نقله للمستشفى، وهكذا شكل السجن فضاء فجائعيا بنسبة لجلال، وبالتالي كل هذا يعكس حالة المثقف وحالة كل من يسعى إلى التغيير والإصلاح، فلم يكن ذنب جلال سوى أنه دافع عن ذاكرته وتراثه، وكان صوت المقهورين في زنقة الطليان.

خاتمة:

من خلال ما سبق يمكن القول بأن رواية زنقة الطليان استطاعت أن تستدعي المكان استدعاء فنيا جماليا أسهم في شعرية النص، فهذه الرواية أطرت جانبا اجتماعيا مهما من حياة الطبقة الهامشية، حيث كان المكان وسيلة تعبيرية مهمة في الكشف عن دواخل الشخصيات وأفكارها، كما كان حمّالا لمجموعة من الأبعاد التاريخية والثقافية والاجتماعية التي بثها

الروائي في ثنايا نصه، وكل هذا كان بفضل تجسيد الروائي لمجموعة من الأمكنة على الورق، تنوعت ما بين المنفتح والمنغلق، المعادي والأليف، ووراء كل تلك الأمكنة تتوارى العديد من الدلالات التي منحت للنص حلة جمالية .

[1] حسن بحراوي بنية الشكل الروائي، ص:79

[2] بومدين بلكبير، زنقة الطليان، منشورات ضفاف، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2021، ص:137

[3] المصدر نفسه، ص:27

[4] بومدين بلكبير، زنقة الطليان ، ص: 102

[5] المصدر نفسه، ص: 119

[6] المصدر نفسه ، ص:80

[7] بومدين بلكبير، زنقة الطليان ، ص:100

[8] المصدر نفسه، ص:103

[9] المصدر نفسه، ص:215

[10] المصدر نفسه، ص: 215

[11] المصدر نفسه، ص: 216

[12] بومدين بلكبير، زنقة الطليان، ص:174

[13] المصدر نفسه، ص:178

[14] بومدين بلكبير، زنقة الطليان ، ص:147

[15] المصدر نفسه، ص:49

[16] المصدر نفسه، ص:51

[17] بومدين بلكبير، زنقة الطليان ، ص:53

[18] المصدر نفسه، ص:103

[19] بومدين بلكبير، زنقة الطليان، ص:69

[20] المصدر نفسه، ص:103

[21] حميد لحميداني، بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي، ص: 72

[22] بومدين بلكبير، زنقة الطليان، ص: 156،157

[23] المصدر نفسه، ص: ص162

[24] المصدر نفسه، ص: 163

[25] بومدين بلكبير، زنقة الطليان ، ص: 141

[26] المصدر نفسه، ص: 124

[27] محمد بوعزة، تحليل النص السردي، ص: 106

[28] بومدين بلكبير، زنقة الطليان، ص: 17

[29] بومدين بلكبير، زنقة الطليان، ص: 19

[30] المصدر نفسه، ص: 18

[31] بومدين بلكبير، زنقة الطليان، ص: 40

[32] المصدر نفسه، ص: 40

[33] بومدين بلكبير، زنقة الطليان ، ص: 42

[34] المصدر نفسه، ص: 7

[35] المصدر نفسه ، ص: 72

[36] المصدر نفسه، ص: 73

[37] بومدين بلكبير، زنقة الطليان ، ص: 186

[38] المصدر نفسه، ص:186

[39] المصدر نفسه ، ص: 187